الادارة الايلخانية فى العراق

٦٥٦ - ٧٣٧هـ (١٢٥٨ - ١٣٣٦م)

الدكتـور جعفر حسـين خصبـاك
الاستاذ المساعد فى قسـم التاريخ

وصل هولاكو ظاهر بغداد الشرقية فى الثامن عشر من محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) وأخذ بمهاجمة المدينة فى الثامن والعشرين من الشهر المذكور فاستولت جنوده عـلى برج العجمى بعـد سـتة أيام من الحرب الشديدة وفى الرابع من صفر من نفس السنة وضع السيف فى أهل المدينة وأشعلت فيها النيران حتى احترق جـامع الخليفة ومشـهد موسى الجواد وتربة الخلفاء وفى الرابع عشر من الشهر نفسه قتل الخليفة مع ولده الاكبر وخمسة من الخدام الملازمين لهم وانتهت بذلك دولة بنى العباس[١] . وقد عهـد هولاكو لقـائديه (ايلكانويان) و (قرابوغا) أمر المحـافظة عـلى العراق واكمال اخضاعه ووضـع تحت قيادتهما ثلاثة آلاف فارس وكان أهل الحلة والكوفة قـد نزحوا بأولادهم وأموالهم الى البطائح وحضـر أكابرهم الى هولاكو وسـألوه حقن دماءهم فأجابهم الى ذلك وعـين لهم شحنة فعادوا الى بلادهم وأرسلوا الى من فى البطائح من الناس يعرفونهم بذلك فخرجوا وحملوا الى هولاكو مبلغـا عظيما من المال فتصدق عليهم بنفوسهم ثم ان القائد (بوقاتيمور) سار لامتحان ولاءهم وولاء أهل الكوفة وواسط فاستقبله أهل الحلة اسـتقبالا حسنا وبعدما توثق منهم غادرهـم فى العاشر من صفر متوجها نحو واسط حيث وصلها فى السابع عشر من

---

(١) رشيد الدين فضل الله ، داسـتان هولاكو ، جامـع التواريخ (النص الفارسـى مع ترجمـة فرنسـية بقلـم M. Qatrmere) ص ٢٨٢ - ٢٠٦ .

الشهر المذكور فقاومه أهلها وحاربوه ولكنه انتصر عليهم وقتل منهم حوالى الاربعين ألف انسان ثم غادرهم نحو البصرة فأعلنت له المدينة خضوعها مع منطقتها وكذلك فعلت تستر ومنطقتها خوزستان[٢] . أما الموصل فأن أميرها بدرالدين لؤلؤ كان قد دخل فى طاعة المغول منذ سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) وأمد هولاكو بالسلاح ولكنه ظل يراسل الخليفة المستعصم سرا وبعد واقعة بغداد بقليل حضر عند هولاكو فأحسن استقباله وأقره على أمارة الموصل ولكنه لما عاد اليها مرض أياما ومات فتولى الحكم بعده ولده الملك الصالح اسماعيل ولكن هذا أعلن الثورة على المغول فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) فأرسل اليه هولاكو قائده (سنداغو) حيث وصل المدينة وضرب حولها الحصار ونصب على أسوارها المناجيق مدة اثنى عشر شهرا وأبلى أهل الموصل وأميرهم فى القتال بلاء حسنا ونصبوا مقابل مناجيق المغول ثلاثين منجنيقا ترميهم ليل نهار فلما رأى القائد المغولى صعوبة فتح المدينة أمسك عن القتال حتى فنيت ميرتها وتعذرت عليها الاقوات وأكل أهلها الميتة ولحم الكلاب فحينئذ طلب أميرها الامان فأجابه القائد المغولى الى ذلك ولكنه لما خرج اليه قبض عليه وعلى ولده ثم قتل ولده الملقب بعلاء الملك[٣] . وأرسل بالملك الصالح وأخاه الملك الكامل الى هولاكو فأمر بالاول منهما وكان غضبه عليه شديدا فسلخ وجهه وهو حى ثم قتل وقتل أخوه وكان طفلا ودخل الجيش المغولى المدينة وكان ذلك فى رمضان سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) نقتل غالب أهلها وأخذ الكثير منهم أسرى حتى خوت المدينة وكأن لم يبق بها أحد ولما انتهت استباحتها ورحلت الجنود المغولية عنها عاد اليها من كان مختبئا من أهلها فى الجبال والمغارات[٤] . وفى الوقت الذى بدأ فيه هولاكو بالزحف على بغداد فى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) أرسل قائده (أرقيونويان) لافتتاح قلعة أربيل ولكن

---

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٦ ـ ٣١٢ .

(٣) الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧ .

(٤) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٣٨٨ .

الاكراد دافعوا عنها دفاعا مجيدا فطلب القائد المغولى النجدة والمشورة من بدرالدين لؤلؤ أمير الموصل فأمده بطائفة من جنوده وأشار عليه بالاستمرار على الحصار حتى الصيف حيث لجأ الاكراد الى الجبال هربا من الحر فعمل بذلك وكان أهل القلعة يخرجون منها أثناء الليل فيهاجمون جنود المغول ويقتلون من يستطيعون قتله منهم ويشعلون النيران فى مناجيقهم ثم يعودون الى قلعتهم حتى طال الحصار ودكت أسوار القلعة وسقطت بعد حوالى السنة(٥) .

وهكذا أخضعت غالبية المناطق التى تكون العراق الحالى بأجزائها التى كانت تتكون من العراق العربى وقسم من بلاد الجزيرة وبلاد الجبال (العراق العجمى) وقتل عدد كبير من سكانه وخربت أجزاء منه . وقد قتل غالبية أعضاء العائلة العباسية الحاكمة باستثناء البعض منهم ممن استطاع الفرار والنجاة . وكان أحد هؤلاء أبوالقاسم أحمد بن الظاهر بأمرالله الذى صار الى عرب العراق واختلط بهم فلما ملك السلطان الظاهر بيبرس عرش مصر وفد عليه مع جماعة من مشايخ العرب فى رجب سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) فركب السلطان للقائه ومعه الوزير وقاضى القضاة والشهود والمؤذنون وغيرهم فقرر نسبه على القاضى وشهد الشهود بصحته وبويع بالخلافة وأصبح المستنصر بالله الثامن والثلاثين من خلفاء بنى العباس ولكنه لم يبق فى الخلافة غير خمسة شهور وعشرين يوما قام خلالها بتقليد السلطنة للملك الظاهر بيبرس ثم ان السلطان المذكور اعتنى بتجهيزه وأخذه معه الى دمشق وسيره منها فى الواحد والعشرين من ذى القعدة من نفس السنة نحو بغداد . وحينما وصل مدينة (الرحبة) وافاه الامير (بريد بن على بن حذيفة) من آل فضل وأخوه الاخرس فى اربعمائة فارس من العرب ثم سار الجميع الى (عانة) حيث لحق بهم الحاكم بالله وهو أمير عباس آخر سبق ان اعلن نفسه خليفة ، مع سبعمائة فارس من التركمان جهزه بها

---

(٥) المصدر السابق ، ص ٣١٤ ـ ٣١٦ ؛ انظر
Ency. of Islam, Vol. II, P 551.

حاكم حلب وقد نزل والى المدينة وناظرها وسلماها الى (المستنصر بالله) ثم أن الخليفة سار الى (حديثة) ففتحها له أهلها فنزل بها ثم رحل عنها قاصدا (هيت) . ولما اتصلت أخباره (بقرابوغا) قائد العسكر المغولى بالعراق و (على بهادر) شحنة بغداد خرج الاول منهما بخمسة آلاف رجل وقصد الانبار ودخلها غرة وقتل جميع من فيها وأعقبه على بهادر بمن بقى من عساكر بغداد . وقد أغلق أهل هيت أبواب مدينتهم دون الخليفة فحاصرها وفتحها فى التاسع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) ثم رحل عنها وقصد الدور وبعث طائفة من عسكره بقيادة الامير أسدالدين محمود بن الملك المفضل موسى فبات تجاه الانبار ليلة الاحد ثالث المحرم سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) فلما رأى (قرابوغا) الطليعة أمر من معه من العسكر بالعبور اليها فى المخائض والمراكب ليلا فلما أسفر الصباح تهيء (قرابوغا) للقتال ورتب الخليفة جيشه وحمل بنفسه وحمل من معه فانكسر على بهادر ووقع معظم عسكره فى الفرات ثم خرج كمين من التتار فلما رآه التركمان والعرب هربوا وأحاط الكمين بعسكر الخليفة فصدق ومن معه القتال ولكنهم هزموا ولم يوقع للخليفة على أثر والارجح أنه قتل ونجا الحاكم بالله وبعض أمراء العرب(٦) . وكانت هذه آخر محاولة قام بها أمير عباسى لاعادة الخلافة الى بغداد .

وهنا يمكننا القول بناء على المعلومات التى مرت بنا ان المقاومة الجدية للغزو المغولى بين ٦٥٦ و ٦٦٠هـ (١٢٥٨م - ١٢٦١م) لم تقم فى العراق الا فى الجانب الشرقى من بغداد فى المنطقة المحاطة بالسور وفى أربيل وواسط والموصل . ومع صعوبة تقدير الخسائر المادية - عدا خسائر الارواح - التى أوقعها هذا الغزو بالعراق فان المصادر الاولية المطلعة تساعدنا على القاء ضوء غير قليل على سعتها وطبيعتها . ففيما يتعلق ببغداد يقول صاحب الحوادث الجامعة : (وأحرق معظم البلد وجامع الخليفة

(٦) قطب الدين اليونينى ، ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٩٤-١٢٧ .

وما يجاوره ، واستولى الخراب على البلد)[٧] ويقول الخواجة رشيدالدين فضل الله : (وأحرقت أكثر المواضع الشريفة مثل جامع الخليفة ومشهد موسى الجواد عليه الرحمة وتربة الخلفاء)[٨] • ويقدم لنا صاحب كتاب مراصد الاطلاع فيما يأتي وصفا تأريخيا موجزا لتأريخ خراب المدينة وهو يعرفها قبل سقوطها وبعده بفترة غير طويلة : (فلم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة أعمرها الكرخ وخرب من الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وبنى السور على ما بقى منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها)[٩] • وقد تم بناء السور المشار اليه في عهد المسترشد ٥١٢ - ٥٢٩هـ (١١١٨ - ١١٣٥م) وكانت أهم المحلات الواقعة في داخله قبل سقوط بغداد هي : سوق الثلاثاء ومحلة المأمونية ومحلة باب الازج ومحلة قراح ابن رزين والمحلة المقتدية ومحلة المختارة ومحلة قراح ظفر ومحلة قراح القاضي وقراح أبي الشحم ومحلة القيبات ومحلة البصلية وقطيعة العجم والظفرية وشارع دار الرقيق ونهر المعلى والجعفرية والقرية والحلبة • والمهم في كتاب (مراصد الاطلاع) ان صاحبه يبين فيما اذا كان الموقع غير موجود في زمانه ويعلن خرابه فيما اذا كان خربا في عهده[١٠] • لذلك فان ما يقدمه من المعلومات عن كل محلة من محلات بغداد الواقعة داخل السور يلقي ضوء كبير الاهمية

(٧) انظر ما مر •

(٨) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٢٩٨ •

(٩) مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، ج ١ ، ص ٢٠٩ •

(١٠) يرى كاتب هذه السطور أن مؤلف كتاب مراصد الاطلاع لا يمكن أن يكون صفي الدين بن عبدالحق الحنبلي المولود سنة ٦٥٨هـ والمتوفى سنة ٧٣٩هـ بل أنه رجل آخر غير بغدادي كان يعرف بغداد منذ أيام الخليفة المستنصر بالله ودليله على ذلك ما يأتي :

أولا : ان مؤلف الكتاب أورد ما يأتي في كلامه عن موضوع (دار الشجرة) : « قلت : والذي رأيناه نحن أنها كانت مثل المحلة بها مساكن ودار قد كان يسكنها أنساب الخليفة من أولاد الخلفاء بأهلهم =

على طبيعة ما خرب في هذه المنطقة المهمة فيقول عن سوق الثلاثاء أنه (سوق في وسط بغداد من أعمر أسواقها وهو سوق البزازين)[١١] . ويصف محلة المأمونية بأنها (محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد ، بين نهر المعلى وباب الازج)[١٢] وعن باب الازج بأنها (محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة ومحال كبار ، في شرقي بغداد)[١٣] . وعن قراح ابن رزين ما يأتي : (وأهل بغداد يسمون البستان قراحا . وفي بغداد عدة محال تسمى بقراح مضاف الى رجل يعرف باسمه) ثم يقول عن قراح ابن رزين أنه

= كالمحبوسين ، يمنعون عن الخروج منها ، ولهم أرزاق دائرة عليهم وسموا بذلك لانهم من شجرة النسب ، فنسب الدار اليهم » ج ٢ ص ٥٠٦ .

ونحن نعلم أن عادة سجن أنساب الخليفة وأولاده بالشكل الذي يشير اليه المؤلف قد انتهت بمجيء المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين الى دست الحكم لانه أطلقهم . وبما أن الخليفة المذكور تسلم منصب الخلافة في ٦٤٠هـ فلا بد أن يكون صاحب مراصد الاطلاع قد شهد الموقع المشار اليه أي (دار الشجرة) قبل هذا التاريخ ولا بد أن يكون من السن في ذلك الوقت بحيث يدرك أهمية ما أشار اليه أي بما لا يقل عن العشرين سنة وهذا ينفي نفيا قاطعا أن يكون صفي الدين المولود في ٦٥٨هـ .

ثانيا : ان كلامه عن بغداد يدل على أنه لم يكن من أهلها فهو يقول تحت مادة بغداد « حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم فلم يبق منهم غير آحاد كانوا أنموذجا حسنا ، وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها ، وهي الآن غير التي كانت وأهلها غير من عهدناهم ، والحكم لله تعالى » ج ١ ص ٢٠٦ .

فلو كان من أهل المدينة وأصاب أهلها ما أصابهم لما قال (وقتلوا أهلها كلهم) وقال (وباد أهلها) لانه لا بد وأن يكون قد مسه هو أو أحد أفراد عائلته أو مس بيته أو أحد بيوت أصحابه شيء من الضرر يقتضي الاشارة اليه ولو من بعيد بل أنه — على ما يبدو — يعرف المدينة وأهلها قبل سقوطها لانه لولا ذلك لما استطاع المقارنة بين أهل المدينة قبل سقوطها وبعده وهذا يؤكد النقطة الاولى كل التأكيد لان ميلاد صفي الدين بن عبدالحق أمر مقرر معروف وهو بعد سقوط بغداد بسنتين .

(١١) المصدر السابق ، ج ١ ص ٨٩٨ .

(١٢) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٢٢٢ .

(١٣) المصدر السابق ، ج١ ص ٦٥ .

(أقرب المحال فى وسط البلد)[١٤] • وذكر عن محلة المقتدية أنها بالجانب الشرقى وعن محلة المختارة أنها (بين باب أبرز وقراح القاضى ومحلة المقتدية)[١٥] • وعن قراح ظفر أنه (ظاهر محلة الظفرية)[١٦] وعن محلة قراح القاضى أنه (اذا خرجت من قراح رزين على يمينك درب واسع فيه درب قراح القاضى على يسارك ، ثم يمتد فيه الى قراح أبى الشحم • وفيه دروب عن يمينك وشمالك)[١٧] • وعن محلة القبيات أنها (محلة ببغداد وراء قراح أبى الشحم)[١٨] • وقد وردت محلة البصلية تحت اسم البصلة وورد عنها انها (محلة فى طرف بغداد فى الجانب الشرقى متصلة بباب كلواذى)[١٩] • وعن قطيعة العجم أنها (بالجانب الشرقى فى أسفل البلد بين باب الحلبة وباب الازج : محلة عظيمة كبيرة فيها أسواق كأنها مدينة برأسها)[٢٠] • وعن الظفرية بأنها (محلة بشرقى بغداد كبيرة)[٢١] وعن شارع دار الرقيق أنه (محلة ببغداد متصلة بالحريم الطاهرى باقية الى الآن وبها سوق)[٢٢] وعن نهر المعلى أنه محلة وأنه (من عقد الجديد الى عقدى المصطنع فى الشارع الاعظم من الريحانيين ، وباب النوبى الى باب جامع القصر الى العقدين وفيه السوق والدكاكين)[٢٣] وعن الجعفرية أنها (محلة كبيرة مشهورة فى الجانب الشرقى من بغداد)[٢٤] وعن القرية أنها (محلتان ببغداد احداهما فى حريم دار

---

(١٤) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٠٧١ •
(١٥) المصدر السابق ، ص ١٢٣٩ •
(١٦) المصدر السابق ، ص ١٠٧١ •
(١٧) المصدر السابق •
(١٨) المصدر السابق ، ص ١٠٦٦ •
(١٩) المصدر السابق ، ج١ ص ٢٠٢ •
(٢٠) المصدر السابق ، ج٣ ص ١١١٠ •
(٢١) المصدر السابق ، ج٢ ص ٩٠٥ •
(٢٢) المصدر السابق ، ص ٧٧٣ •
(٢٣) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٤٠٦ •
(٢٤) المصدر السابق ، ج١ ص ٣٣٦ •

الخلافة وهي كبيرة فيها محال وسوق والاخرى بالجانب الغربي ...)[٢٥].
وعن الحلبة أنها (محلة كبيرة ببغداد في شرقيها قرب باب الازج)[٢٦] .
وقد أورد صاحب المراصد هذه المحلات دون أن يشير الى خرابها . يضاف الى ذلك أنه أورد من الدور المهمة في بغداد ما يأتي (قصر ميدان خالص) وقد قال عنه أنه بدارالخلافة ببغداد[٢٧] ودار الريحانيين وقد ذكر أنه (دار في دار الخلافة ... استجدها المستظهر بالله خرب أكثر هـذه الدار وبقي بستانها لا غرس فيه)[٢٨] وقال عن دار سوق التمر أنها (دار عظيمة من دار الخلافة مشرفة على مشرعة الابريين)[٢٩] وعن دار الشجرة أنها (دار بدار الخلافة ببغداد)[٣٠] . وعن الدار المثمنة أنها (بدار الخلافة من عمارة المطيع ، كانت في غاية الحسن ، نقضت تقريبا)[٣١] . وعن الدار المربعة أنها (بدار الخلافة من عمارة المطيع أيضا)[٣٢] . يضاف الى ذلك ان المصدر الاولى المهم الموسوم بالحوادث الجامعة يؤكد وجود دار الخليفة ودار الدويدار الكبير وجامع الخليفة وقد أحرق في الواقعة وأعيد اصلاحه بعدها والمدرسة النظامية وسوقها والمدرسة المستنصرية والمدرسة التتشية ومدرسة الاصحاب ومدارس وربط أخرى[٣٣] . ومن مجموع المعلومات المتوفرة لدينا عن المواقع المار ذكرها وهي أهم ما كان قائما في

---

(٢٥) المصدر السابق ، ج٣ ص ١٤٠٦ .
(٢٦) المصدر السابق ، ج١ ص ٤١٧ .
(٢٧) المصدر السابق ، ج٣ ص ١١٠١ .
(٢٨) المصدر السابق ، ج٢ ص ٥٠٦ .
(٢٩) نفس المصدر والصفحة .
(٣٠) نفس المصدر والصفحة .
(٣١) نفس المصدر ، ص ٥٠٧ .
(٣٢) نفس المصدر ، ص٥٠٨ .
(٣٣) الحوادث الجامعة ص ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٠ ، ٣٢٤ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٢٩ .

المدينة المحاطة بالسور يمكننا القول ان الخسائر المادية ـ عدا خسائر الارواح والاموال ـ كانت محدودة بحيث أمكن اصلاحها بسهولة خلال فترة قصيرة وقد جاء في الرسالة المنسوبة الى نصيرالدين الطوسى أن هولاكو أمر بعد اعلان الامان بتعمير بغداد ودفن أجساد البشر والحيوانات(٣٤) . كما ورد في الحوادث الجامعة ان الامر صدر ، بعد واقعة بغداد بقليل (بعمارة جامع الخليفة وكان قد أحرق) . وان صدر الوقوف فتح المدارس والربط(٣٥) . وقد جاء في جامع التواريخ ما يؤكد ذلك ويضيف الى ذلك أن هولاكو أرسل القائدين ايلكانويان وقرابوغا وأمرهما باصلاح ما خرب من المدينة في الحال واصلاح أسواقها واعادة أعمال أهلها الى ما كانت عليه ورفع القتلى من الناس والحيوان(٣٦) . ومما يؤكد ما ذهبنا اليه في أن تخريبات الفتح لم تكن خطيرة في بغداد ان السائح المغربي ابن بطوطة زار المدينة في أواخر العهد الايليخاني في ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) وذكر أن فيها جسران يعبرها الناس ليل نهار رجالا ونساء والناس في نزهة متصلة وان الجانب الشرقي من المدينة حافل الاسواق عظيم الترتيب أعظم أسواقه يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيه على حدة وفي وسطه المدرسة النظامية وفي آخره المدرسة المستنصرية وأن في هذا الجانب من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ثم أنه ذكر قبور الخلفاء العباسيين بالرصافة وعلى كل قبر اسم صاحبه(٣٧) . وقد وصف حمدالله المستوفي القزويني بغداد في ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) وقد رآها بنفسه ، فعد

---

(٣٤) نصير الدين الطوسى ، رسالة بالفارسية ترجمت الى العربية ونشرت من قبل محمد صادق الحسيني ، في مجلة المرشد البغدادية ، ج٤ ص ٢٦ .

(٣٥) ص ٣٣٣ .

(٣٦) ص ٣٠٨ .

(٣٧) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (مطبعة مصطفى محمد علي ، ١٩٣٨) ج١ ص ١٤٠ ـ ١٤٢ .

الكثير من المواقع المهمة فيها مثل المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية التي وصفها بأنها أجمل بناية في المدينة وأشار الى وجود قبور الخلفاء العباسيين في الجانب الشرقي وغير ذلك من المواقع المهمة[٣٨] . وأخيرا وصف ابن فضل الله العمري المتوفي ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) بغداد فأشار الى وجود قصور الخلافة والمدارس والابنية العالية المطلة على دجلة ووجود الكثير من جوامع ومساجد ومدارس وخوانق وربط وبيمارستانات وغيرها[٣٩] .

هذا ما ورد عن بغداد أما عن المدن الاخرى فيبدو ان ما وقع فيها من الخراب كان غير خطير أيضا وأنه أصلح بعد فترة قصيرة فقد كتب صاحب مراصد الاطلاع عن أربيل أنها (مدينة كبيرة في فضاء من الارض واسع لها قلعة حصينة ذات خندق في طرف المدينة ينقطع سور المدينة في نصفها ، وهي على تل عال عظيم من تراب ، وفيها أسواق ومنازل للرعية)[٤٠] . وكتب عن الموصل أنها (المدينة المشهورة العظيمة : احدى قواعد بلاد الاسلام ، قليلة النظير كبرا وعظما ، وكثرة خلق ، وسعة رقعة)[٤١] . ووصف ابن بطوطة مدينة واسط بأنها (حسنة الاقطار كثيرة البساتين)[٤٢] .

هذا ما يتعلق بالمدن العراقية أما عن وسائل الري فان المصادر الاولية المطلعة لا تشير الا الى شيء واحد وهو ان المغول خلال غزو هولاكو لم يخربوا الا نهر بشير ، وهو فرع صغير من نهر دجيل خلال حربهم مع الدواتدار الصغير قائد جيش الخليفة في ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) ولذلك فان كل

---

(٣٨) حمد الله المستوفى القزويني ، نزهة القلوب (الترجمة الانكليزية للقسم الجغرافي بقلم G. L. Strange) ص ٤١ – ٤٢ .

(٣٩) ابن فضل الله العمري الكرماني الدمشقي ، مسالك الانصار ، كما ورد في القلقشندي ، صبح الاعشى في قلائد الانشا ، ج ٤ ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

(٤٠) ج١ ص ٥١ .

(٤١) ج٣ ص ١٣٣٣ .

(٤٢) تحفة النظار ، ج١ ص ١١٤ .

ما قيل عن تخريب المغول المنظم لنظام الرى فى الراق فى عهد هولاكو أمر لا أساس له من الصحة(*) .

- ٢ -

كانت الادارة العباسية قبيل الفتح المغولى تمثل تطورا أملته الظروف التأريخية لادارة امبراطورية عظيمة تحولت الى دولة صغيرة تشتمل على العراق العربى وأربيل وخوزستان ويرأسها حاكم هو فى نفس الوقت خليفة المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها لمركزه صفة شبه مقدسة تحمل معها احترام المسلمين وعطفهم ولو بصورة شكلية نظرية . وكانت بغداد فى اول أمرها عاصمة العالم الاسلامى وقلبه النابض فأصبحت فى آخر أمرها قبل سقوطها بأيدى هولاكو عاصمة دولة صغيرة ولكنها ظلت مع ذلك رمزا للوحدة الاسلامية . وقد كانت التنظيمات الادارية لدولة الخليفة فى عهدها الاخير معقدة تشتمل على دوائر كثيرة العدد تلائم ماضى الدولة أكثر من حاضرها . وكان بلاط الخليفة يقوم - بسعته وتعدد أقسامه والوظائف القائمة به وتعقد مراسيمه - على اشباع مركز الخليفة الاسمى العظيم أكثر من خدمة الواقع المحدود المتواضع لدولة صغيرة ضعيفة الامكانيات . ولذلك فان تحول العراق الى مجردولاية من ولايات الامبراطورية الايلخانية المترامية الاطراق استلزم اعادة النظر بطبيعة ادارته ووظائفه واستوجب تقليصها وتبسيطها وزيادة اللامركزية فى ادارتها لان ادارة امبراطورية واسعة كبيرة على الاساليب المركزية أمر مستحيل فى عهد كانت أسباب المواصلات فيه بدائية ومسألة المحافظة على الامن أمر يستوجب عناية مستمرة من الحكومة خصوصا ورأس الامبراطورية بعيد عنها فى أذربيجان لذلك فقد ترك هولاكو حامية من الجنود المغولية فى العراق منذ أول عهده بالفتح وكان بعض أمراء العائلة المالكة الايلخانية

(*) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٢٤ ، تاريخ وصاف ، ج١ ص ٣٤ ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٢٧١ .

يتخذ مقره العسكرى مع قوات مغولية غير قليلة فى العراق[٤٣] . وكانت عناية الايلخانات متجهة منـــذ البداية الى التثبت من ولاء صاحب ديوان العراق والى تعيين أحد المغول بمنصب الشحنة أى الحاكم العسكرى .

قرر هولاكو أسس ادارة العراق فى يوم قتل الخليفة المستعصم بالله فعـين مؤيدالدين ابن العلقمى وزير الخليفـة وزيرا وفخرالدين ابن الدامغانى صاحب ديوان الخليفة صاحب الديوان وعلى بهادر الخراسانى شحنة[٤٤] . وحضر نجمالدين أحمـد بن عمران وهو من أهل باجسرا بين يدى السلطان فعينه صـدر الاعمال الشرقية وأقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجى فأقرد على القضاء وتاجالدين على بن الدوامى حاجب الباب فى عهد الخليفـة فعينه صـدر الاعمال الفراتية[٤٥] . وكان جميـع هؤلاء باستثناء الشحنة من أهل العراق والعارفين بشؤونه والمشتغلين بادارته فى زمن الخليفة الاخير وقـد فوض اليهم هولاكو أمر تنظيم ادارة العـراق فاجتمعوا وقرروا أحـواله ونظموها وعينوا حكامه وكبار موظفيـه وقـد راعى هؤلاء ظروف البلاد الجديدة فاحتفظوا بالوظائف المهمة الضرورية وألغـوا وظائف أخرى أو قلصـوها وعينوا فى بغـداد كاتب سـلة ونائب شرطة وخازن ديوان وصدر وقوف وهى وظائف عباسية قديمـة وقسموا البلاد الى خمسة مناطق ادارية وضعوا عـلى رأس كل منهـا موظفا باسـم صدر ثم عينوا النواب والنظار[٤٦] .

وكان من الطبيعى ان يؤدى الفتـح المغـولى الوثنى الى زوال منصب الخليفة وزوال وظائف البلاط القائمة على خدمته وخدمة منصبه الجليل . وقد كانت بغداد مركزا لدواوين تشرف على ادارة شؤون العراق العامـة كديوان الزمام وديوان الابنية وديوان الرسائل وديوان الجوالى وديوان

---

(٤٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤٧٦ .

(٤٤) جامع التواريخ ، داستان هولاكو ، ص ٥٠٧ ـ ٤٠٠ .

(٤٥) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٢ .

(٤٦) نفس المصدر ، ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

الحسبة وديوان عرض الجيش وديوان العقار وديوان المقاطعات وديوان الخراج وديوان التركات يرأس كلا منها موظف باسم صدر ومعه مراقب أو مفتش باسم مشرف(٤٧) • وكان لكل منطقة ادارية أو منطقة مهمة ديوان في بغداد يرأسه صدر ومعه مشرف(٤٨) • ولكننا لم نعد نسمع في العهد الايلخاني عن تلك التشكيلات شيئا ، ويبدو أنها ألغيت واستعيض عنها بديوان واحد واسع هو ديوان الزمام وقد كان ديوان الدواوين في العهد العباسي فأصبح يدعى في العهد الايلخاني بالديوان ويضم المركز الرئيسي لادارة العراق ويجلس فيه واليه الذى أصبح يسمى (صاحب الديوان) بسبب رآسته له • وأصبح لكل منطقة ادارية ديوان خاص لادارتها يقوم فيها وليس في العاصمة بغداد سيرا مع الاتجاه الجديد في اللامركزية • وفي ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) ولى هولاكو علاءالدين عطا ملك جويني صدرية ديوان العراق فأصبح الحاكم الاعلى فيه واختفت بذلك وظيفة الوزير وكان قد شغلها في هذه الفترة كل من مؤيدالدين ابن العلقمي وعند وفاته ابنه عزالدين ابو الفضل ابن العلقمي ، ولم نعد نسمع بها لان وظيفة صاحب الديوان أصبحت تتضمنها • وقد خلعت شخصية علاءالدين عطا ملك القوية يساندها أخوه شمس الدين صاحب ديوان الممالك أى رئيس وزراء الامبراطورية ، البهاء والقوة على هذه الوظيفة خصوصا وأنها كانت على رأس ولاية ممتازة من ولايات الايلخان وأن علاءالدين استمر في منصبه حوالى الواحد والعشرين سنة ، كان في أكثرها الحاكم القوى الشديد للعراق العربي • وكانت سلطات هذه الوظيفة تتمثل فيما ذكره القلقشندى عن مسالك الابصار في كلامه عن منصب الوزير ان (أمر متحصلات البلاد ودخلها وخرجها الى الوزير واليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب شرعي ، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور

---

(٤٧) أنظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد لكتاب تاج الدين على المعروف بابن الساعي ، الجامع المختصر •

(٤٨) الحوادث الجامعة ، ص ٦٣ ، ٧١ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ٢٤٤ •

السلطان الا في جل من الامور)[٤٩] . أصبح صاحب الديوان هو الذى يعين كبار الموظفين كقاضى القضاة والصدور والنظار وغيرهم وله عليهم وعلى الرعية حق الحياة والموت[٥٠] . كما أنه أخذ يقوم بواجبات أمير الحاج وهو وظيفة عباسية مهمة تقوم على النظر فى تهيئة الناس للحج سنويا بمفاوضة الاعراب القائمين على الطريق وأخذ الرهائن منهم واتخاذ مايلزم لايصال الحجاج سالمين الى مكة واعادتهم منها[٥١] . ولم نسمع طيلة حكم الصاحب علاءالدين أنه التزم وظيفته عن طريق الضمان ولا بوجود مشرف عليه ولكن الفترة التى أعقبت وفاته فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) شهدت سلسلة من أصحاب الديوان لا يستمر الواحد منهم فى الحكم الا مدة قصيرة ولا يبدى فى ادارته ما أثبته علاءالدين من المقدرة . وبينما كنا نرى ان السلطان الايلخانى هو الذى يعين صاحب ديوان بغداد أصبحنا نسمع أن أحد أمراء المغول أو صاحب ديوان الممالك هو الذى يعينه أحيانا أو ينيبه عنه . فقد عين أمير الامراء أى القائد العام للجيوش الايلخانية الامير بوقا أخاه أروق ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) حاكما على العراق وديار بكر فعين هذا بدرالدين خاص صاحب ديوان بغداد[٥٢] . وفى ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) عين سعد الدولة اليهودى صاحب ديوان الممالك أخاه فخرالدولة صاحب ديوان العراق[٥٣] وفى ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) رتب جمال الدين الدستجردانى صاحب ديوان الممالك أخاه عمادالدين نائبا عنه فى بغداد وكان قليل المعرفة بأحوال العراق فاعتمد على عزالدين محمد بن شمام في ذلك فكان هو الحاكم وعمادالدين صدره[٥٤] . وبينما لم نكن

---

(٤٩) صبح الاعشى ، ج٤ ، ص ٤٢٤ ، أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٦ .

(٥٠) الحوادث الجامعة ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٧٢ .

(٥١) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .

(٥٢) المصدر السابق ، ص ٤٣٧ .

(٥٣) المصدر السابق ، ص ٤٥٧ .

(٥٤) نفس المصدر ، ص ٤٩٠ .

نسمع بوجود مشرف على صاحب الديوان نسمع في ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ان على بدرالدين خاص عين بمنصب صاحب ديوان بغداد ورتب سعدالدين مظفر القزويني مشرفا عليه[٥٥] . ونسمع في ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بتولية شرف‌الدين محمد السمناني في منصب صاحب ديوان بغداد وأقامة سعدالدولة مشرفا عليه[٥٦] . وبينما لم نكن نسمع سابقا ان حكم العراق يعقد بالضمان نسمع في ٦٩٨هـ (١٢٩٨م) أن ضمانه يعقد على الملك أمام‌الدين يحيى القزويني البكري وأنه استقل بالحكم فيه[٥٧] .

ونجد الى جانب وظيفة صاحب الديوان من الوظائف الجليلة ، وظيفة (كاتب السلة) وهي وظيفة عباسية استمرت بعد الفتح المغولي كان صاحبها يقوم برئاسة كتاب ديوان الزمام في العهد العباسي ولكن تركز الادارة الايلخانية في هذا الديوان رفعت من أهمية هذه الوظيفة ومنزلة صاحبها، حتى أصبح يقابل ، على أقل تقدير من ندعوه الآن (سكرتير مجلس الوزراء) ويقوم على رأس كتاب ولاية العراق التي بيده أسرارها وخفاياها أصبح يطلق عليه أحيانا اسم (كاتب العراق) وينقل من وظيفته ليقوم برئاسة ادارة العراق أي اشغال منصب صاحب الديوان[٥٨] ، وكان كاتب السلة مرتبطا بصاحب الديوان مطلعا على أسرار ادارته لذلك كان يراعى الانسجام ـ على ما يبدو ـ بين من يشغل الوظيفتين فكانت نكبة صاحب الديوان تجر معها ـ في كثير من الاحيان ـ نكبة كاتب سلته[٥٩] وتعيين صاحب ديوان جديد تجر معها كاتب سلة جديد[٦٠] ، حتى أن هذين الموظفين مع نوابهما ، كانا يعملان كهيئة مسؤولة تشبه الى حد ما مجلس

---

(٥٥) نفس المصدر ، ص ٤٣٧ .

(٥٦) نفس المصدر ، ص ٤٥٥ .

(٥٧) نفس المصدر ، ص ٤٦٨ .

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(٥٩) المصدر السابق ، ص ٤١٩ ، ٤٤٦ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ٤١٥ ، ٤٣٧ .

الوزراء الذى يسقط بأجمعه اذا سقط رئيسه[٦١] .

وهناك وظيفة (المشرف) وهى عباسية تعنى مراقب أو مفتش ، وكانت تقوم الى جانب أكثر الوظائف المهمـــة كالصدر والناظر وفى الدواوين كالاشراف فى ديوان واسط والاشراف فى ديوان أربيل وأشراف البلاد الحلية ولكن الوظيفة امتدت خلال العهد الايلخانى الى أهم وظائف العراق فأصبح هناك مشرف على صاحب ديوان بغداد ومشرف للعراق[٦٢] . وقد عين السلطان أباقا ابن هولاكو مجد الملك اليزدى مشرفا فى جميع الممالك أى لجميع مناطق الامبراطورية الايلخانية فعين هذا نوابا عنه وكانت علامته مشرف الممالك[٦٣] . ويبدو أن من عوامل تأكيد الايلخانيين على هذه الوظيفة رغبتهم فى السيطرة على امبراطوريتهم الواسعة المترامية الاطراف للمحافظة عليها من الاخطار الخارجية والداخلية التى أخذت تتهددها بازدياد كلما تقدم الزمن بها . ومن الجهة الاخرى لم نعد نسمع عن الاشراف الذى كان قائما بكثرة خلال العهد العباسى الاخير على الوظائف الادارية الكبيرة والدواوين الا القليل فقد كان هناك مشرف فى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) على صـدر الاعمال الواسطية[٦٣] ومشرف فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) على الحلة[٦٥] .

وهناك منصب قاضى القضاة وهو أول من دعاهم القلقشندى أرباب الوظائف الدينية وموضوعها كما قال : (القيام بالاوامر الشرعية والفصل بين الخصوم ونصب النواب للتحدث فيما عسر عليه مباشرته بنفسه ، وهى أرفع الوظائف الدينية وأعلاها قدرا وأجلها رتبة)[٦٦] . ويقابله اليوم منصب وزير العدلية . وقد كان فى بغداد قبل سقوطها بأيدى هولاكو ، قاضى قضاة وأقضى قضاة والاخير منصب ثانوى وقضاة يعينهم قاضى القضاة

(٦١) المصدر السابق ، ص ١٤٩ .
(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٧ .
(٦٣) المصدر السابق .
(٦٤) المصدر السابق ، ص ٤١٧ .
(٦٥) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ .
(٦٦) القلقشندى ، ج٤ ص ٣٤ ـ ٣٥ .

ولكننا نسمع أن أقضى القضاة عبدالمنعم البندنيجي حضر في ٦٥٦هـ عند هولاكو فأمر أن يقر على القضاء[٦٧] . فأشغل منصبه باسم أقضى القضاة[٦٨] . ولكنه لما توفى في ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) أحضر سراج الدين محمد بن أبي فراس الهنايسي الشافعي ورتب قاضي قضاة بغداد نقلا عن التدريس بالمدرسة البشيرية[٦٩] . وقد كان مدرسو المدارس الدينية هم المرشحون لمناصب القضاة بحكم اشتغالهم بدراسة الشريعة الاسلامية المصدر الذي يستقي منه القضاة أحكامهم في الفصل في الخلافات الناشئة بين المسلمين. وكان يرتبط بوظيفة القاضي أمر الحسبة والتدريس وأحيانا قضايا الوقوف فالحسبة وصاحبها المحتسب ، موضوعها التحدث في الامر والنهي عن المنكر ومراقبة المعايش والصنائع والاخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته[٧٠] . ونحن لا نسمع مما وصلنا عن العراق الايلخاني بوجود محتسب بل نقرأ أن هولاكو عين علي بهادر في ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بوظيفة شحنية وأسند اليه أمر مراقبة الاوزان وأصحاب الحرف[٧١] الذي كان جزء من واجب المحتسب . وقد استناب أقضى القضاة نظام الدين عبدالمنعم البندنيجي فخر الدين عبدالله بن عبدالجليل الطهراني الراوي وفوض اليه أمر الحسبة[٧٢] . وفوض شرف الدين هرون الجويني صاحب ديوان بغداد في ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) أمر القضاء بالجانب الغربي الى بدر الدين علي بن محمد بن ملاق الرقي اضافة الى الحسبة بجانبي بغداد[٧٣] . ويبدو أن الحسبة ظلت تابعة للقضاة الى آخر العهد الايلخاني[٧٤] . أما قضايا

---

(٦٧) الحوادث الجامعة ، ص ٣٢١ .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٣٦٢ .

(٧٠) القلقشندي ، ج٤ ص ٣٧ .

(٧١) داستان غازان ، جامع التواريخ ، ص ٣٠٦ .

(٧٢) الحوادث الجامعة ، ص ٣٦٢ .

(٧٣) المصدر السابق ، ص ٤٢٨ .

(٧٤) المصدر السابق ، ص ٤٩٤ .

الاوقاف ويشـــرف صاحبها على رزق الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس ، فقد عين لها صدر بعد سقوط بغداد بقليل قام بالاشراف على ترميم جامع الخليفة وفتح المدارس والربط واثبات الفقهاء والصوفيـــة وادرار الاخبار والمشاهرات عليهم • ثم أن جميع الأوقاف الاسلامية فـــى الامبراطورية الايلخانية وضعت تحت اشراف نصيرالدين الطوسى وانتقلت بعد وفاته الى أبنائه حتى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) حيث أعيدت الى حكام بغداد ، ثم أعيدت اليهم فى السنة التالية(٧٥) • وكان هؤلاء يعينون نوابا عنهم لادارة أوقاف العراق(٧٦) • وهنـاك وظيفتان دينيتان ظلتا قائمتين طيلة العهـــد الايلخانى هما (نقابة الطالبين) و (مشيخة الشيوخ) • وموضوع نقابـة الطالبين ، كما يقول القلقشندى (التحدث على ولد على بن أبى طـــالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رســـول الله صلى الله عليه وسلم ••• فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم والاخذ على يد المتعدين منهم ونحو ذلك)(٧٧) • أما (شيخ الشيوخ) فانه كان يقوم بالنظر فى شـؤون الربط والخوانق(٧٨) •

وبالاضافة الى ما مر كان هناك وظيفتان اداريتان مهمتان استمرتا من العهد العباسى الى العهد الايلخانى هما : الصدر والناظر • والصدر كان يطلق فى العصر العباسى على رئيس احدى الوحدات الادارية كصدر الاعمال الفراتية وصدر الاعمال الحلية وعلى رئيس أحد الدواوين كصدر المخزن وصدر الوقوف • أما فى العهد الايلخانى فانها اقتصرت على رئيس احدى الوحدات الادارية التى أصبح ينقسم اليهـــا العراق العربى وأصبح يلقب صاحبهـــا بلقب ملك(٧٩) باستثناء ادارة الوقوف الذى ظل يرأسها صدر الوقوف • وأصبح

---

(٧٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٦ •
(٧٦) المصدر السابق ، ص ٤٤٣ •
(٧٧) القلقشندى ، ج٤ ص ٣٨ ، أنظر أيضا الحوادث الجامعـــة ، ص ٤٨٠ •
(٧٨) الحوادث الجامعة ، ص ٢١٤ ، ٤٥٦ ، ٤٦٨ ، ٤٩٢ •
(٧٩) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ •

الصدر ، رئيس الوحدة الادارية ، يتمتع باستقلال ذاتي في منطقته بدرجة أكبر مما كانت عليه خلال العهد العباسي ويشرف على ادارة القوات المسلحة القائمة على حماية الامن في منطقتـــه[٨٠] • أما الناظر فانه كمـــا يقول القلقشندي (من ينظر في الاموال وينفذ تصرفاتها ويرفع اليه حسابها ينظر فيه ويتأمله فيمضي ما يمضي ويرد ما يرد ••• ثم هو يختلف باختـــلاف ما يضاف اليه كناظر الجيش وهو الذي يتحدث في أمر الجيوش وضبطها أو ناظر الخاص وهو الذي ينظر في خاص أمـــوال الســـلطان أو ناظر الدواوين وهو الذي يعبر عنه بناظر الدولة يشارك الوزير في التصرف ••• أو ناظر أوقاف أو جهة برد ما يجرى مجرى ذلك)[٨١] • وهذا يطابق ما كان يجرى في العراق في العهد الايلخاني فصاحب هذه الوظيفة موظف مالي بالدرجة الاولى ولكنه بسبب عدم وجود التخصص الواضح الشديد في الادارة كان يقوم بالاشراف على أمور ادارية أحيانا • فقـــد مر بنا أن المستنصر العباسي سار الى عانة في ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) فنزل اليه واليهـــا وناظرها وسلماها اليه[٨٢] ، وأن سعد الدولة بن صفي الدولة عزل في ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) عن نظر المارستان العضدي • وان والي العراق رتب في ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) محمد بن شمام ناظرا لنهري عيسى والملك[٨٣] •

هذه هي أهم الوظائف المدنية ، أما الوظائف العسكرية فأهمها اثنان : الشحنة ونائب الشرطة • والشحنة وظيفة كانت شائعة في البلاد الاسلامية ومنها الدولة العباســـية في العهود الاخيرة ، كانت تقابل ما نســـميه اليوم (الحاكم العســـكري) • ولكنها أصبحت في العهد الايلخـــاني تتضمن بالاضافة الى ذلك وظيفة القـــائد العام للقوات المسلحة الذي أصبحت أهـــم واجباته محافظة الامن العـــام في العراق بالقضـــاء على حوادث الثورات

(٨٠) المصدر السابق ، ص ٤٤٠ •

(٨١) القلقشندي ، ج٥ ، ص ٤٦٥ •

(٨٢) أنظر ما مر •

(٨٣) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٢ •

والعصيان وأعمال الشغب الكبيرة ومراقبة صاحب الديوان لضمان ولائه للدولة الايلخانية ، حتى أن الشحنة أصبح عين السلطان على رؤساء ادارة العراق من الموظفين المدنيين وقد كان على بهادر الخراسانى أول شحنة للعراق فى العهد الايلخانى وكان من أول الذين دخلوا بغداد فى العهد الايلخانى ، لكنه تآمر على صاحب الديوان فقتل فى ٦٦١هـ (١٢٦٢م) ونصب محله رجل مغولى هو (قرابوغا) وظل أمر هذه الوظيفة الجليلة بأيدى المغول ـ بصورة عامة ـ الى آخر العهد الايلخانى ، وكان من بينهم (توكال بخشى) و (تتارقيا) و (وتاولدار) وغيرهم . ويبدو أن سبب اسنادها الى مغولى يرجع الى أهمية الوظيفة والى عدم ثقة السلطان الايلخانى بغير أبناء جنسه فيما يتعلق بالامور العسكرية . وقد كان صاحب هذه الوظيفة يدعى أحيانا شحنة العراق(٨٤) أحيانا شحنة بغداد(٨٥) . وبينما كان هنالك فى العهد العباسى شحنة لكل منطقة من مناطق العراق ومدنه الكبيرة كشحنة واسط وشحنة البصرة وشحنة البلاد الحلية(٨٦) فاننا لا نسمع بها فى العهد الايلخانى الا فى نص واحد أشار الى هرب شحنة البوازيج(٨٧) . وقد يدل ذلك على أن سلطة الشحنة انتقلت الى (الصدر) أو رئيس الوحدة الادارية . ومما يلقى ضوء على طبيعة هذه الوظيفة ومدى صلاحياتها أن شحنة بغداد اتفق فى ٦٩٠هـ (١٢٩١م) مع رسل أمراء المغول ، وقد أرسلوا اليه نبأ موت السلطان أرغون وقتل وزيره سعدالدولة ، على القبض على صدر ديوان بغداد مهذب الدولة(٨٨) . وقد ورد أن الامير أذينا شحنة بغداد ، مهد العراق بحسن سيرته(٨٩) . أما وظيفة (نائب

---

(٨٤) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .

(٨٥) المصدر السابق ، ص ٣٥٠ .

(٨٦) المصدر السابق ، ص ١٧٦ ـ ١٧٩ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٤٤٧ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

الشرطة) فهى تقابل مدير شرطة مدينة بغداد ، وهو مسؤول عن الاشراف على شؤون أمن العاصمة الا اذا حدث أمر خطير يهدد سلامتها أو سلامة العراق ، فعند ذلك يتدخل الشحنة • ويبدو ان صاحب هذه الوظيفة كان تابعا لصاحب الديوان وليس للشحنة • فقد ورد عن حوادث ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) أن صبيين من الشطار ظهر فى بغداد وآذا الناس وانضم اليهما الكثير من العامة ، فقام نائب الشرطة بنقل الامر الى صاحب الديوان الذى وضع الخطط اللازمة للقبض عليهما ونجح فى ذلك فعلا[٩٠] •

٣

أدى الفتح المغولى الى جعل المناطق التى تكون العراق الحالى جزء من الامبراطورية الايلخانية التى أصبح يحكمها هولاكو وأولاده وأحفاده من بعده بمساعدة أمراء من المغول ووزراء وولاة من الفرس والعرب والاكراد وغيرهم وقد قتل هولاكو أكثر أفراد العائلة العباسية وألقى طائفة منهم فى السجون ومحا أثر بنى العباس حتى أصبح الخطر يهدد كل من يردد ذكرهم[٩١] • وكان من نتائج الفتح المغولى المباشرة أن تحطم الاساس الذى كانت تقوم عليه الدولة التى دخل فيها العراق منذ أوائل الفتوحات الاسلامية فى أواسط القرن السابع الهجرى وهو الرابطة الدينية • فالدولة لم تعد دينية اسلامية تضم فريق المؤمنين كوحدة سياسية يكون الاسلام فيها جنسية المواطن التى تزوده بحقوقه الكاملة كمسلم يساوى أخاه المسلم ولو نظريا وتسير حياته فيها طبقا للاسس التى قررها القرآن وأوضحتها السنة ويكون فيها غير المسلم من أهل الكتاب كالمسيحى واليهودى منتميا الى جنسيات أخرى تكون طوائف متميزة لها أسلوب الحياة الخاص الذى قررته أديانها ولا تتمتع بنفس الحقوق التى يتمتع بها المسلم وان كانت تخضع لنفس الحكومة •

---

(٩٠) المصدر السابق ، ٤٠٣ ــ ٤٠٤ •

(٩١) ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ١٢٠ •

وقد جاء الاحتلال المغولى فألغى الاساس الدينى للدولة وجعل الاديان ومن ضمنها الاديان الوثنية طوائف متساوية الحقوق أمام السلطان الايلخانى ونوابه واستمر الحال كذلك حتى مجيء غازان الى العرش فى ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) حيث عادت الامور الى ما كانت عليه فى السابق . والحقيقة ان المسيحيين تمتعوا خلال النصف الاول من حكم الايلخانيين بأكثر من مساواة فقد أمر هولاكو ، بتأثير زوجته المسيحية (دوقوز خاتون) بعدم الاعتداء عليهم خلال استباحة بغداد فى ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) كما قدمت لرئيس الطائفة المسيحية (الجاثليق) احدى دور بغداد المهمة وهى دار الدواتدار الكبير الطبرسى فاتخذ منها كنيسة نزع منها الحروف العربية ورفع عليها الكتابة السريانية والشارات المسيحية ، وكان هولاكو وابنه أباقا وحفيده أرغون يعطفون على المسيحيين ويعملون على التقرب من الدول المسيحية خوفا من قوة الاسلام المتنامية فى مصر وسورية والقفجاق . يضاف الى ذلك أن عهد السلطان أرغون ٦٨٣ - ٦٩٠هـ (١٢٨٤ - ١٢٩١م) تميز بسيطرة اليهود فقد كان صاحب ديوان الممالك أى رئيس وزراء الامبراطورية الايلخانية منهم وكان نوابه فى حكم العراق وغيره من الولايات المهمة من اليهود أيضا .

وبزوال الخلافة العباسية من بغداد سددت لفكرة الوحدة الاسلامية ضربة قاصمة ونقدت بغداد مركزها السامى باعتبارها قاعدة بلاد الاسلام وانقسم العالم الاسلامى الى قسمين رئيسين متحاربين الاول وأهم أقاليمه العراق وايران وبلاد الروم ، وقد أصبح جزء من امبراطورية الايلخانيين والثانى وأهم من يمثله مصر وسوريا والحجاز وهى خاضعة لدولة المماليك. ولكن فكرة الوحدة الاسلامية لم تمت بل ظلت حلما يراود أفكار المسلمين تحقق بعودة الخلافة الى القاهرة بعد بضعة سنين من سقوط بغداد ولكن بشكل هزيل . ويشبه ذلك من بعض الوجوه سقوط روما الغربية بأيدى الجرمان فى ٤٧٦م وزوال الامبراطورية الرومانية من أكثر بلاد أوروبا الغربية حتى ظل الامل يراود نفوس أهلها بعودة الامبراطورية - التى

كانوا يظنون أنها خالدة لن تزول ــ من جديد ، حتى تحققت أحلامهم فى ٨٠٠م بتتويج شارلمان امبراطورا رومانيا .

كانت الامبراطورية الايلخانية تكون من الولايات التالية : الجزيرة الفراتية والعراق العربى وخورستان والاهواز وفارس وكرمان وسجستان والرخج وأرمينيا وأذربيجان وأران وبلاد الجبل أو العراق العجمى وبلاد الديلم والجيل وطبرستان ومازندان وقومس وخراسان وزابلستان والغور(٩٢) . وكانت المناطق التى تكون العراق الحالى تكون أجزاء من ولايات كبيرة ثلاثة هن : أولا بلاد الجبال أو العراق العجمى وفيه مدينة شهرزور ، وثانيا : الجزيرة الفراتية وفيها الموصل وسنجار والعمادية وأربيل ، وثالثا : العراق وهو القسم الاهم وقد أصبح ولاية أيلخانية ممتازة وكان يمتد ما بين حديثة الموصل(٩٣) الى عبادان طولا والقادسية الى حلوان عرضا(٩٤) . كان العراقأحد الولايات الايلخانية المهمة التى كانت تسمى ممالك ويدعى حكامها أحيانا بملوك . وكان السلطان الايلخانى يقوم بتعيين حكام هذه الولايات فى أول صعوده للعرش برأيه أو بعد مشاورة أمراءه وخواتينه ووزراءه ولم يكن من الضرورى أن يعين حاكما خاصا لكل ولاية بل قد يمنح بضعة ولايات لحاكم واحد يعين فى كل منها نوابا فقد منح هولاكو ممالك العراق العجمى وخراسان ومازندان لابنه أباقا وممالك أران وأذربيجان لابنه الآخر يشموت والجزيرة للامير تودان وكرمان لتركان خاتون(٩٥) ولكن العراق العربى كان يخضع لحاكم واحد على الاكثر وكان ولاية ممتازة من ولايات الامبراطورية وكانت

---

(٩٢) القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج٤ ص ٣١٤ ، أنظر أيضا تاريخ وصاف ، ج٣ ص ٣٧١ ؛ وانظر الحافظ أبرو ، ذيل جامع التواريخ ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٣ .

(٩٣) حديثة الموصل : بليدة كانت على دجلة فى الجانب الشرقى قرب الزاب الاعلى (مراصد الاطلاع ، ج١ ص ٣٨٧) .

(٩٤) مراصد الاطلاع ، ج٢ ص ٩٢٦ .

(٩٥) داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٤٠٠ .

عاصمته بغداد تسمى في كتابات المعاصرين باسم مدينة السلام(٩٦) . ويزورها الايلخان عدة مرات كما فعل أباقا خان في٦٦٧هـ (١٢٦٨م) و٦٧٢هـ (١٢٧٣م) و٦٨٠هـ (١٢٨١م) وكانت تتميز ببعض المناسبات فقد أرسل اليها رأس مجد الملك اليزدي مشرف الممالك في عهد أباقا خان ورأس الامير نوروز قائد جيوش السلطان غازان(٩٧) .

فوض هولاكو أمر العراق العربي بعد فتحه الى جماعة من العراقيين ومنهم على بهادر الخراساني الشحنة الجديد فقسموه الى المناطق الادارية التالية : الاعمال الشرقية وهي الخالص وطريق خراسان والبندنيجين وأعمال دجيل والمستنصري والاعمال الفراتية . والاعمال الحلية والكوفية والاعمال الواسطية والبصرية(٩٨) . ولم تكن هذه الاقسام الادارية متميزة ولا ثابتة بل ان سلاطين الايلخانيين ونوابهم ومنهم صاحب ديوان بغداد كانوا يقسمون الواحدة منها الى أكثر من منطقة ادارية أو يضيفون بعضها الى بعض حين تعيينهم حكامها ومن ذلك أن ناصرالدين قتلغ شاه الصاحبي رتب في الاعمال الواسطية في ٦٧٦هـ (١٢٧٧م)(٩٩) . وان السلطان أرغون دخل بغداد في ٦٨١هـ (١٢٨٢م) وطلب المال من الكثير من الحكام منهم نواب الاعمال الحلية والواسطية والبصرية(١٠٠) . وان فخرالدين مظفر بن الطراح ولي في ٦٩٤هـ (١٢٩٤م) قوسان وواسط والبصرة وولي دولة شاه بن سنجر الصاحبي الحلة وعزالدين محمد بن شمام ناظرا لنهري عيسى والملك في نفس السنة(١٠١) . وقد يعود هذا الاضطراب الى أن ادارة العراق الايلخانية كانت استمرارا في كثير من مظاهرها للادارة

---

(٩٦) تاريخ وصاف ، ج٢ ص ٢٣٧ .

(٩٧) داستان غازان ، جامع التواريخ ، ص ٤٩٤ .

(٩٨) الحوادث الجامعة ، ص ٣٣٢ ؛ أنظر أيضا داستان هولاكو ، جامع التواريخ ، ص ٣٠٦ و ٥٠٧ .

(٩٩) الحوادث الجامعة ، ص ٣٩٥ .

(١٠٠) المصدر السابق ، ص ٤٢٤ .

(١٠١) المصدر السابق ، ص ٤٨٢ .

العباسية فى العهود المتأخرة حينما لم يكن العراق العربى يقسم الى مناطق ادارية ثابتة والى أن تولية المناصب فى العهد الايلخانى لم يكن يلتزم روتينا ثابتا بل كان عرضة للاهواء الشخصية •

كانت ادارة الامبراطورية الايلخانية لا مركزية وكان حاكم العراق مستقلا فى ادارة شؤونه مقابل تقديمه المال اللازم لخزينة السلطان والقوات العسكرية المناسبة له ساعة ظهور الخطر ولكن هذه اللامركزية لم تكن كاملة لان السلطان كان يزور العراق ليطلع على أموره بنفسه ويقضى الشتاء فى ربوعه فى بعض الاحيان وكان يرسل اليه مشرفا يستقصى شؤونه عن كثب ويرفع اليه تقريرا عنه يضاف الى ذلك ان حكام العراق كانوا يتآمرون على بعضهم البعض عند السلطان أو أمرائه أو وزرائه فيؤدى تآمرهم الى تدخل السلطان فى شؤونهم فمن ذلك ان سعدالدولة اليهودى اتصل فى ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) بالسلطان أرغون وكشف له أحوال العراق فأرسله مع الامير (أردوقيا) لتصفح أحواله فلما وصله اجتمع بحكامه وخفض على الناس ما قرر عليهم من القروض وأصلح أحواله ثم عاد الى السلطان[١٠٢] فعينه مشرفا على العراق فعاد اليه فى نفس السنة فأخذ بمراقبة حكامه ومحاسبتهم ومعاقبتهم • وفى ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) سير السلطان غازان الامير (توختا) لتصفح أحواله وسير معه (سعدالدين أسد بن على) مشرفا على العراق فقدما اليه وقبضا على مشرفه السابق شرف‌الدين بن بديعا[١٠٣] • وقد توجه صاحب ديوان العراق فخرالدين بن الدامغانى فى ٦٥٧هـ (١٢٩٩م) الى هولاكو ومعه صدور أعمال العراق وأراد هولاكو أن يفوض اليه أمر العراق ولكن أحد الصدور وهو نجم‌الدين بن عمران وشى به عند هولاكو بأنه أطلق أحد أنساب الخليفة المستعصم من السجن فقبض عليه ومات سجينا[١٠٤] • وفى ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) ورد أمر السلطان أباقا بن

---

(١٠٢) المصدر السابق ، ص ٤٥١ •

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٤٩٢ •

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ •

هولاكو الى صاحب ديوان بغداد بالقدوم الى مقره لمقابلته الى ما نسب اليه من مكاتبة سلطان مصر والشام فلما قوبل على التهمة لم تثبت عليه فأمر بقتل من وشى به(١٠٥) .

كانت سلطة السلطان الايلخانى غير محدودة تتضمن حق الحياة والموت على رعاياه ومن بينهم الامراء المغول والوزراء وبقية الشعوب المحكومة وكان القتل مصير أكثر من يشك بولاءهم ولم يكن للرعية حقوق بل واجبات أهمها الطاعة ودفع الضرائب بمختلف أنواعها . ومثال ذلك أن سراج الدين بن البجلى صدر واسط والبصرة كان من جملة من قصد هولاكو فى ٦٥٧هـ ، فوشى به أنه أخربها وأهمل مصالحها فأمر بقتله فقتل(١٠٦). وقد أخذ صاحب ديوان الممالك خطوط حكام بغداد بما يفيد اساءة على بهادر شحنة بغداد الحكم وجبايته المال من الناس من غير حق ، فأمر به فى ٦٦١هـ (١٢٦٢م) فقتل(١٠٧) . وقدم الامير أرغون العراق فى ٦٨١هـ (١٢٨٢م) وطلب من أهل بغداد مساعدات مالية ثقيلة استوفيت بالعسف والجور حتى أن كل من اختفى من الناس نهبت داره وبيع ما فيها ، وفرضت مثل ذلك من المساعدات على حكام الاقاليم(١٠٨) . وكان نواب السلطان الايلخانى يتمتعون بالنسبة لمرؤوسيهم ورعاياهم بنفس السلطة المطلقة غير المحدودة . فقد جاء صاحب ديوان الممالك شمس الدين الجوينى الى بغداد فى ٦٨٠هـ (١٢٨١م) للتحقيق فى التهم التى نسبها الحكام الى أخيه صاحب ديوان بغداد عطا ملك جوينى ، فأمر بالقبض على صالح بن الهذيل ملك واسط أى حاكمها وطالبه بالمال وعذبه بالدوشاخة ثم أمر فطيف به فى واسط فحصل منه على قدر يسير من المال ساعده به الناس ثم قبض على أصحابه ونوابه وطالبهم بالمال وعذبهم ثم عزل صالح

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٩ .
(١٠٦) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .
(١٠٧) المصدر السابق ، ص ٤٢٤ .
(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٣٤٩ .

بن الهذيل عن الاعمال الواسطية وسلمها الى آخر[١٠٩] • وفي ٦٩٠هـ (١٢٩١م) سار مهذب الدولة أحد مساعدى صدر ديوان الدولة الى واسط فقبض على ملكها أى حاكمها نور الدين عبدالرحمن وطوقه بالحديد ونفذه الى بغداد حيث ألقى فى السجن انتظارا لقتله ولكن الخبر ورد الى بغداد بموت السلطان (بايدو) وقتل وزيره سعدالدولة وان الامراء عينوا كاتب العراق جمالالدين الدستجردانى بمنصب صدر ديوان بغداد فاتفق هذا مع الرسل وشحنة بغداد وأطلقوا نورالدين عبدالرحمن من السجن وأعادوه الى صدرية واسط وأمروه بالقبض على مهذب الدولة وحمله الى بغداد حيث ألقى فى السجن ثم طولب بالاموال فأنكر أن يكون لديه شيء منها فضرب فلم يعترف فضرب بالسكاكين والسيوف وقتل ثم قطع اربا وتناهبه العوام وتعمم نفاط بمصرانه وطيف به فى شوارع بغداد ودروبها ثم أحرق بباب جامع الخليفة ما عدا رأسه الذى سلخ وحشى تبنا وطيف به فى جانبى بغداد ثم حمل الى واسط وعلق على جسرها[١١٠] •

كان من أهم مظاهر حكومة العراق الايلخانية عدم الاستقرار والفساد فقد كان حكام الولايات معرضين من رئيسهم صاحب الديوان الى الى أصغر موظف منهم الى السجن والتعذيب والقتل والتمثيل بأبشع الصور وبصورة مفاجأة بسبب تغير الادارة المركزية فى الامبراطورية بموت السلطان القائم أو قتله ومجيء سلطان يكرهه أو يختلف معه حيث يسرع الى البطش والتنكيل بالحكام السابقين ونوابهم وأصحابهم وكان دس الحكام على بعضهم سرا وعلانية عند السلطان ووزراءه مما يزيد الاحوال سوء وكانت تهمة الحصول على المال كالسيف القاطع الذى يهدد مختلف الحكام وباستثناء علاءالدين عطا ملك جوينى صدر ديوان بغداد الذى نجح بالاحتفاظ بمنصبه لواحد وعشرين سنة لم يستطع خلفاءه الاحتفاظ بمناصبهم الا لمدد قصيرة لا تزيد على بضعة أشهر أحيانا • ومثال ذلك أن

---

(١٠٩) المصدر السابق ، ص ٣٤٩ •

(١١٠) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ •

عطا ملك جويني صدر ديوان بغداد القوي في عهد (هولاكو) وابنه (أباقا). كان هدفا لسلسلة من المؤامرات التي كادت تودي بحياته عدة مرات وكان أشد خصومه عليه أحد الايرانيين الذي كان عاملا لاخيه شمس الدين الجويني صاحب ديوان الممالك وهو المدعو (مجد الملك اليزدي ابن صفي الملك أبو المكارم) حيث أنه اتصل بالسلطان أباقا وأخذ يكيل التهم ضد الاخوين شمس الدين وعلاء الدين حتى أخبره بأن الاخير يسلك مسلك الملوك في حكمه العراق وانه اتخذ لنفسه تاجا مرصعا[111] وأنه جنى لنفسه أموالا طائلة حجبها عن خزينة السلطان وأنه يكاتب ملوك مصر والشام . وفي ٦٨٠هـ (١٢٨١م) أمر أباقا خان بالقبض على علاء الدين وأصحابه ونوابه وتسليمهم الى (مجد الملك اليزدي) فاستوفى هذا منهم أموالا كثيرة وباع من أملاك علاء الدين وأسبابه شيئا كثيرا ، ثم أمر بالقاءه مكتوفا بقميص واحد على شاطيء دجلة في بغداد وكان البرد شديدا ، بينما ضرب أتباعه واستوفيت منهم الاموال ثم حمل الى ايران . ولكن خلال ذلك حدث أن توفي السلطان أباقا ونصب مكانه (تكودار ابن هولاكو) الذي تحول الى الإسلام وسمى نفسه أحمد وغلب عليه الصاحب شمس الدين الجويني ، وكان من أول أعمال السلطان الجديد أن أمر بتحرير علاء الدين والقبض على (مجد الملك اليزدي) وتسليمه الى أصحاب علاء الدين حيث قتلوه قتلة شنيعة ووزعوا أطرافه على البلاد وسلخوا رأسه وشوى الخربندية لحمه وأكلوا منه وشربوا الخمر في قطعة من رأسه[112] . وقد كان سقوط مجد الملك سببا في سقوط أصحابه ونوابه فقد أرسل علاء الدين بعد تحريره جماعة من أصحابه الى بغداد ومعهم رسالة يشكر فيها أهل المدينة على ولاءهم ومعهم رأس مجد الملك ، فدخل هؤلاء بغداد ونهبوا دار

---

(١١١) غياث الدين بن همام الدين المعروف بخوندمير ، دستور الوزراء ، ص ٢٧٤ ــ ٢٧٥ ، أنظر أيضا تاريخ وصاف ، ج١ ص ٩١ .

(١١٢) الحوادث الجامعة ، ص ٤١٥ ــ ٤١٩ ؛ تاريخ وصاف ، ج١ ص ١٠٧ .

مجدالملك وأمروا فطيف برأسه فيها وقبضوا على أحد أصحابه صفي الدولة بن الجمل كاتب السلة وأصحابه ونهبوا داره وطلبوا أحد الحكام المسمى (على جليان) فاختفى ، وكانوا يحملون معهم اثنين من النصارى من أصحاب مجدالملك هما عبد يشوع ويعقوب ، طيف بهما فى بغداد عراة والعوام يصفعونهما ويضربونهما بالآجر ثم انهما قتلا وجر العوام جثتهما ثم أحرقوها[113] . وقد ثار الامراء المغول على السلطان (أحمد بن هولاكو) وقتلوه لاسلامه[114] فى ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ونصبوا أرغون ابن أباقا سلطانا فأسرع هذا بالتنكيل بأصحاب السلطان السابق وخصوصا آل جوينى ففر شمس الدين صاحب ديوان الممالك ثم قبض عليه وقتل وقتل أكثر أقاربه وكان صدر ديوان العراق فى هذه المرة شمس الدين ابنه ، فقبض عليه شحنة بغداد (تتارقيا) وعلى أصحابه شمس الدين زرديان نائبه وعزالدين جلال المشارك فى كتابة السلة ونظام الدين عبدالله بن قاضى البندنيجين وقبض على شرف الدين محمد بن بصلا وكيل الديوان وعذب وطولب بمال كثير ، ثم قتل نظام الدين قاضى البندنيجين بعد تعذيب عظيم[115] . وفى ٦٩٠هـ (١٢٩١م) توفى السلطان أرغون وقتل الامراء المغول وزيره سعدالدولة اليهودى ولما وصلت الرسل بذلك الى بغداد قبض شحنتها على فخرالدولة أخ سعدالدولة وكان صاحب ديوان بغداد وعلى قريبه مهذب الدولة أحد كبار مساعديه وقتل شر قتلة كما قبض على أمير الدولة حاكم الموصل وكان أخا لسعد الدولة وألقى فى السجن[116] . وفى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) أمر السلطان كيخاتو شمس الدين محمد التركستانى المعروف بالسكورجى بالمسير الى العراق واليا عليه لاصلاح أحواله فجاء بغداد وعمل بذلك ولكن الامير (بايدو) وكان يتخذ مقره

---

(١١٣) المصدر السابق ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ .

(١١٤) أنظر تفصيل ذلك فى تاريخ وصاف ، ج١ ص ١٢٥ ـ ١٣٢ .

(١١٥) الحوادث الجامعة ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨ .

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ ـ ٤٦٦ .

فى العراق نهب بعض القرى العراقية وقتل وسبى فشكاه الوالى الى السلطان فأمر به فألقى فى السجن لبضعة أيام • ولكن بعض الامراء المغول ثاروا على (كيخاتو) وقتلوه ونصبوا (بايدو) مكانه فأسرع هذا الى اصدار أمره بالقبض على والى العراق السكورجي وقتله ، فقتل شر قتلة ، وأمر بايدو باطلاق جمال الدين الدستجردانى وكان معتقلا لايضاح بقايا العراق مع أصحاب السكورجى ، وتوليته أمر العراق ، فأخذ هذا بعزل قسم من أصحاب السكورجى وتولية آخرين غيرهم(١١٧) •

وأخيرا لنا فى سيرة مجدالدين صالح بن الهذيل مثال جيد لما كان يلاقيه حكام العراق من الاخطار وعدم الاستقرار نقد كان هذا كريما ذا معرفة وكفاية خدم أيام الخليفة ورتب بعد سقوط بغداد صدرا فى نهر الملك ونهر عيسى ثم نقل صدرا لواسط ولقب بالملك ، ثم قبض عليه ودوشخ ، أى عذب بآلة تسمى الدوشاخة وطولب بأموال واسط وبيعت أملاكه وأسبابه واستوفى منه مال كثير ، ثم عين حاكما لاربل ، ثم عزل ورتب صدرا فى طريق خراسان ثم قبض عليه وخزم أنفه وطيف به فى بغداد ثم عين ناظرا لقوسان ثم عزل ثم عين نائبا عن شمس الدين البروجردى فى ديوان واسط ، فبقى كذلك الى أن توفى شمس الدين فعين مشرفا لصدر ديوان واسط(١١٨) •

ترك سقوط بغداد السريع واستسلام أكثر المدن العراقية بأيدى المغول أثرا كبيرا فى نفوس أهل العراق خلال السنين الاولى التى أعقبت الفتح حتى ليبدو أن الخوف قد سيطر على النفوس وقضى على كل رغبة فى الثورة على الحكومة الجديدة بالرغم من كونها أجنبية ووثنية ومغولية وان البلاد كانت قاعدة الاسلام وقد كان هذا واضحا أيام هولاكو وابنه أباقا ولكن قبضة الحكام أخذت تضعف مع الزمن وبدأ بعض العصاة يتجرأون على شق عصا الطاعة فيثيرون قلق الحكومة ويحملونها على التدخل وكانت

---

(١١٧) المصدر السابق ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ •

(١٨٨) المصدر السابق ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٣ •

الوضعية العامة على الجدود السورية حيث تجثم دولة المماليك أمرا يقلق بال الايلخانات خصوصا وأن الصحراء الفاصلة بين سورية والعراق كانت موطنا لقبائل عربية شـديدة المراس كان امراءها يعملون على الافادة من النزاع الناشب بين الدولتين العظيمتين الايلخانية والمملوكية(١١٩) لجر المغانم لانفسهم وكان عرب خفاجة قوة تعرقل الامن وتنشر الخراب حوالى الكوفة(١٢٠) • وكانت البطيحة فى جنوب واسط ملجأ للعصاة والخارجين على الحكومة يضاف الى ذلك ان القوات المغولية الموجودة فى العراق كانت فى بعض الاحيان سببا من أسباب قلق السكان وارتباك الامن باعتداءها على الآمنين واعتيادها الى أيام غازان باطلاق حيواناتها ترعى فى زروع الفلاحين وأراضيهم(١٢١) • أما عامة بغداد فلم يعودوا الى ما كانوا عليه فى العهد العباسى من المعارك الا فى أواخر أيام السلطان أباقا • ومع كل هذا يمكن القول ان الامن كان يسود أكثر بلاد العراق خلال أغلب سـنى حكم الايلخانيين وان حوادث الشغب والثورات لم تصبح مهددة لمركز حكومة العراق العربى أو الموصل بالشكل الذى كان يحدث فى ايران مثلا فى هذا العهد ولم يحدث أن شق والى من ولاة بغداد عصا الطاعة على الحكومـة الايلخانية ، ولعل هذا يفسر عودة النشاط الاقتصادى الى البلاد وانتعاش بغداد والبصرة والموصل وكانت أهم مراكز التجارة فيه •

وفى ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) نسمع لاول مرة عن حادثة شغب فى بغداد أكد المسلمون فيها أنفسهم أمام النصارى الذين حمتهم الدولة الايلخانيـة ومنحتهم من الحرية ما لم تمنحهم أياه الحكومات الاسلامية فقـد غضب جاثليق النصارى أى رئيس طائفتهم ، فى بغداد على نصرانى قد أسـلم وحاول تغريقه ، فبلغ الخبر عوام بغداد فاجتمعوا ونهبوا محلات النصارى

---

(١١٩) أنظر القلقشندى ، صبح الاعشـى ، ج٤ ص ٢٠٣ ــ ٢١٠ ، أبو الفدى ، المختصر فى أخبار البشر ، ج٤ ص ٨٧ •

(١٢٠) أنظر ابن بطوطة ، تحفة النظار ، ج١ ص ١٣٧ •

(١٢١) أنظر الحوادث الجامعة ، ص ٤٩٢ •

وحاصروا الجاثليق وأحرقوا داره وقاتلوا أصحابه حتى نزل في سفينة والتجأ الى صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك فاتصل هذا بالشحنة (توكال بخشي) الذي ركب وقتل نفرا من العامة وحبس آخرين حتى سكنت الفتنة(١٢٢) . وفي ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) نسمع عن ظهور صبيان من الشطار انضم اليهم جماعة من الجهال فقويت شوكتهما وانتشر ذكرهما وأخذا بالتجرؤ على الناس وتكليفهم المال وتخويفهم اذا امتنعوا عن الدفع ولكن صاحب الديوان أرسل اليهما من قبض عليهما وقتلهما(١٢٣) . وفي ٦٨٠هـ (١٢٨١م) نسمع عن أعراب ومفسدين ظهروا في السيب وأطراف واسط ، فسار اليهم جنود المغول الذين جاؤوا من سورية مهزومين من أمام جيش المماليك ، فنهبوا منهم خلقا كثيرا وعادوا بالاسرى والاموال ونزل الكثير منهم في دور بغداد وأخرجوا أهلها منها(١٢٤) . وفي رمضان من ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) ظهر في سواد الحلة رجل يعرف بأبي صالح ادعى أنه نائب صاحب الزمان أرسله ليعلم الناس أنه قد قرب ظهوره فانضم اليه خلق كثير وقصد بلاد واسط ونزل في موضع يسمى (بلد الدجلة) من أعمالها وأخذ الكثير من أموال الناس وسار الى قرية قريبة من واسط تعرف (بالارحاء) فأنذره صدر واسط فخرالدين ابن الطراح ، فرحل عنها وقصد الحلة فأخرج اليه صدرها (ابن محاسن) ابنه مع جماعة من العسكر فاقتتل الطرفان وقتل ابن صدر الحلة وانهزم أصحابه ، فكاتب هذا حكام بغداد يعرفهم بالامر فسار شحنة العراق مع عسكره الى الثائر الذي قصد قبة (الشيخ البقلي) بناحية (النجمية) من قوسان وقتل كل من بها من الفقراء والصالحين ونهب أموال الناحية ، فوصل شحنة العراق اليهم وأحاط بهم وقتل أكثرهم وحمل رأس أبي صالح الى بغداد وعلق بها . ولكن رجلا آخر اسمه (شامي) ظهر بقرية

---

(١٢٢) المصدر السابق ، ص ٣٥٤ .

(١٢٣) المصدر السابق ، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤ .

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

قرب واسط ، وادعى ما ادعاه أبو صالح وأمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر فمال اليه الكثير ولكن صدر واسط أرسل اليه يتهدده بالقتل ، فلما بلغه ما حل بأبى صالح هرب والتجأ الى العرب وتفرق جمعه(١٢٥) . وفى ٦٨٤هـ (١٢٨٥م) كان العداء بين الايلخانيين والمماليك سببا فى اغارة عسكر الشام على ديار بكر والموصل وأربل وقتلها وأسرها الكثير ونهبها أموال التجار فى قيسارية الموصل ، ويبدو ان النصارى كانوا هدفا رئيسيا للاعتداء خلال فترة ضياع الامن الذى نتج عن ذلك فقتل الكثير منهم فى أربيل . ونهب الاكراد بلد (البوازيج) و (باصفرا) حتى هرب شحنة البوازيج وقصد بغداد وقتل جماعة من النصارى ونهبت أموالهم(١٢٦) . وفى ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) دخل العرب فى يوم الجمعة الى الجامع (بالمحول)(١٢٧) فأخذوا ثياب كل من كان فيه ثم قصدوا (الحارثية) فكبسوها ليلا وأخذوا ما قدروا عليه وقتلوا جماعة من أهلها ، ولكن شحنة العراق ظل يفحص عنهم حتى ظفر بأكثرهم وضرب أعناقهم(١٢٨) . وفى نفس السنة عادت الحرب بين محلات أهل بغداد بسبب اهتمامهم بقتل السباع(١٢٩) . وفى ٦٩٣هـ (١٢٩٣م) أمر السلطان كيخاتو الامير (بايدو) بالمسير الى بلاد واسط وسوادها لظهور جماعة من الاعراب المفسدين فيها ، فسار اليهم ولكن الاعراب لجأوا الى البطائح فلم يقدر عليهم ، فعاد مع عسكره وأخذ بنهب الاموال والجواميس والبقر والغنم وأسر الناس وسبى النساء وصادف سفن التجار الواصلين من البحر فنهب

---

(١٢٤) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(١٢٥) المصدر السابق ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ .

(١٢٦) المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(١٢٧) المحول : بليدة طيبة حسنة نزهة كثيرة البساتين والفواكه بينها وبين بغداد فرسخ واحد على نهر عيسى (مراصد الاطلاع ، ج٣ ص ١٢٣٧) .

(١٢٨) الحوادث الجامعة ، ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(١٢٩) المصدر السابق ، ص ٤٥٣ .

بعض ما فيها من القماش ثم أنه أرسل جماعة من عسكره الى (عين التمر) و (الكنيسات) فنهبت الناس وأسرت وسبت منهم ، ثم أن بايدو عاد مع جنوده وذهب الى بغداد ومعه زيادة على ثلاثين ألف أسير ، فلما اتصل الخبر بالسلطان غضب عليه فحبسه ثلاثة أيام ثم أطلقه كما أطلق طائفة من أسراه وأرسلوا الى أهليهم[١٣٠] .

(١٣٠) المصدر السابق ، ص ٤٧٦ ــ ٤٧٧ .